تقديـــم :

بقلم : الدكتور أحمد قدرى

يمثل هذا الكتاب عن «مصر منذ عصور ما قبل التأريخ حتى نهاية الدولة القديمة» اخيتاراً موفقاً جديداً من جانب الأستاذ مختار السويفى، فى سلسلة ترجماته لبعض عيون أدب علم المصريات، والتى تستهدف رسالة ثقافية نبيلة، لدفع الوعى التأريخى للقارىء العام نحو آفاق رحبة، تسهم فى تأكيد هويتنا القومية المصرية والعربية، بقدر ماتسهم فى تعرّفنا على جوهر عِلْمَى التأريخ والآثار باعتبارهما العمود الفقرى فى أية موجة ثقافية ناهضة لأية أمة من الأمم.

وهذا الكتاب الجديد يستمد أهميته من التركيز على حقبة ما قبل التأريخ فى مصر القديمة، منذ نهاية الدهر الحجرى القديم الأعلى، عندما كانت مجموعات الصيادين البدائيين يعتمدون فى غذائهم على جمع جذور وحبوب وثمرات النباتات البرية، وعلى صيد الحيوانات التى كانت تزخر بها الأحراش والغابات والمستنقعات التى امتدت فى ذلك الدهر منذ عشرات الآلاف من السنين، فى شمال الحزام الصحراوى الأفريقى الراهن، بل وفى معظم أنحاء وجنبات الشرق الأدنى والجزيرة العربية، أثناء العصر الذى امتد فيه الغطاء الجليدى غامراً معظم أوراسيا وأمريكا الشمالية، بينما سادت الأمطار الغزيرة فى المناطق التى تحولت إلى صحراوات موحشة فى مصر وشمال افريقيا، وذلك عند انقطاع العصر المطير وحدوث التحول إلى عصر الجفاف الجديد الذى بدأ منذ نيف وعشرة آلاف من الأعوام.

obeikandl.com

لقد انحدرت حيوانات الصيد فراراً من هذا الجفاف. واتجه بعضها إلى جنوب الحزام الصحراوى الجديد، واتجه بعضها الآخر إلى الأحراش والمستنقعات وضفاف النيل بحثاً عن مصادر جديدة للطعام والمياه، وبالتالى فقد انحدر وراءها أولئك الصيادون القدامى إلى تلك المناطق الأخيرة، حيث تحققت الظروف النباتية والحيوانية بل والانثروبولوچية لانبثاق أعظم ثورة فى تأريخ الإنسان، وهى الثورة الزراعية أو «النيولوثية»، التى أدت إلى ارتباط الإنسان المزارع الجديد بالأرض الأم ارتباطاً لا انفصام منه، بعد اكتشاف الزراعة وتدجين الحيوان، بكل ما ترتب على ذلك من تشكّل وظهور أنظمة إنسانية اجتماعية واقتصادية وروحية جديدة، وظهور المِلْكِيّة والتنظيم الاجتماعى والفن والحياة الدينية على حد سواء.

هذه الحقبة التطورية التى مرت بوادى النيل الأدنى، كشفت بجلاء عن عناصر الجوهر الحقيقى لقدرة الإنسان على التقدم، وعن ظروف نشأة الحضارات وارتقائها نحو أنماط جديدة أكثر ثراء من سابقاتها فى كافة المضامين الثقافية العامة، وعلى وجه الخصوص فى الفن والاجتماع والرؤى والممارسات الروحية.

ومن بوتقة تلك الرحلة الطويلة التى بدأت فى دهر ما قبل التأريخ فى مصر، انبثقت الحضارة المصرية المتميزة وصعدت إلى مستوى الحضارات العليا للإنسان فى العالم القديم، وذلك عندما اكتشفت الكتابة، وبدأت عصور التاريخ المكتوب، وعندما توحّد القطران مصر العليا والسفلى فى وحدة سياسية ظلّت السمة الجوهرية لحياة مصر السياسية منذ بداية العصر الفرعونى وحتى عصرنا الراهن.

لقد عاشت أولى جماعات الثورة الزراعية فى تاريخ الإنسان على أرض وادى النيل فى مصر. وتشير الحفائر الحديثة خاصة تلك التى قامت بها إحدى بعثات الچيولوچيا بقيادة الأستاذ ويندورف أستاذ الانثروبولوچى بالجامعات الأمريكية والأستاذ جروبر من جامعة كولونيا بألمانيا الغربية، إلى أن التقديرات التقليدية السابقة التى وضعت هذه الثورة الحاسمة فى التاريخ الحضارى للإنسان فى حدود الألف السادس قبل الميلاد، يمكن الآن ــ فى ضوء الموجودات الحفرية الجديدة التى اكتشفت فى بعض المواقع «النيولوثية» كمنطقة الكوبّانية بأسوان ومنطقة الجلف الكبير بالصحراء الغربية ــ دفعها إلى قرابة الألف التاسع أو العاشر قبل

الميلاد، مما يؤيد ويرجح النظرية التى ترى أن الثورة الزراعية بدأت أولاً، وقبل أى موقع آخر فى الشرق الأدنى، على أرض وادى النيل الشمالى، وعلى حافات الصحراوات التى تطل عليه.

والحق أن المرحلة التأريخية التى درجنا على إطلاق إسم «الدولة القديمة» عليها، تعد أزهى عصور الحضارة المصرية وأعظمها تعبيراً عن عناصر الشموخ والجبروت فى معطياتها الفنية، خاصة المعمارية منها. وهى مرحلة اعتبرها الاستاذ تُوينْبى القمة الحقيقية للحضارة المصرية القديمة قبل أن تدرج بعد ذلك ــ فى تقدير فيلسوف التأريخ الشهيرــ فى طريق الضعف والتدهور البطىء وحتى نهايتها الفعلية.

والأستاذ سيريل ألدريد مؤلف هذا الكتاب له مؤلفات قيّمة عديدة فى حقل «علم المصريات». وقد أثار ضجّة لم تزل أصداؤها تتردد إلى الآن فى عمله الشهير عن «أخناتون» فرعون التوحيد المعروف وعصره. ويعتبر كتابه الراهن عملاً موجزاً، بالرغم من قيمته العلمية العالية التى حرص على وضعها فى قالب يمكن أن ينفذ إلى القارىء العام والقارىء غير المتخصص. ويتميز هذا الكتاب أيضاً بذلك التحليل العلمى الرائع للعناصر الفنية فى الرسم والنحت والعمارة التى انبثقت براعمها المبكرة فى عصور ما قبل التاريخ المتأخرة وفى عصر ما قبل الأسرات، والتى تطورت وارتقت هذا الارتقاء الرفيع الفذ فى العصر العتيق [عصر الأسرتين الأولى والثانية] ثم فى عصر الأسرات الأربع التالية التى تشكل تاريخ الدولة القديمة أو عصر بناة الأهرام كما يطلق عليه أحياناً.

ولا جدال فى أن الفن المصرى القديم يعتبر أعظم عطاءات الحضارة المصرية القديمة. وهو العطاء الأكثر تميزاً فى مسارها عبر آلاف السنين. ولذلك فإن الأعمال الفنية التى احتواها هذا الكتاب، والتى تتضمن أعمالاً بارزة فى فنون الرسم والنحت والعمارة، تعتبر من المعالم والسمات الأساسية فى تأريخ الفنون الإنسانية بصفة عامة، فضلاً عن دورها فى تعريف القارىء العربى ببعض أهم روائع هذا العطاء الفنى العظيم الذى سجلته الرسوم والنقوش الجميلة الملونة لمناظر وموضوعات الحياة اليومية التى وجدت على جدران مقابر النبلاء فى عصر الدولة

القديمة، أو وجدت على سطوح الأوانى التى خلفتها العصور السابقة على عصر الأسرات، أو التى تمثلها تلك الأهرام الجبارة التى وُسِّدَت فيها مومياوات ملوك أسرات الدولة القديمة باعتبارها أماكن الخلود والحياة السرمدية لهؤلاء العواهل المقدسين بعد انتقالهم إلى الدار الآخرة.

وقد لمست بنفسى مدى الجهد الذى بذله الأستاذ المترجم فى تبسيط المادة المترجمة تبسيطاً يقتضيه الحال، واختزال الجفاف المغرق فى العلمية أحيانا، وصياغته فى أسلوب رقيق سهل وواضح. وقد انتهج الأستاذ المترجم هذا النهج متوخياً تعميم الاستفادة لأعرض قطاعات ممكنة من قراء اللغة العربية. وذلك دون أى انتقاص من القيمة العلمية البحتة للمادة المقدمة فى المؤلف الأصلى.

كذلك فقد عمد الأستاذ المترجم أيضاً إلى تعميق المادة التأريخية والمعلومات «الكرونولوچية» المتعلقة بالملوك الذين ورد ذكرهم بالكتاب والوقائع والأحداث التى صاحبت عصورهم، وذلك لتوضيح المادة المؤلفة التى ركزت أساساً على الفن المصرى القديم بعناصره المختلفة فى العصور التى تناولها هذا الكتاب ابتداء من عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية عصر الدولة القديمة.

وقد استجاب الأستاذ المترجم مشكوراً لاقتراحى بتوظيف ثقافته التاريخية والأثرية الواسعة فى مساعدة القارىء غير المتخصص فى استيعاب موضوعات هذا الكتاب، وذلك بوضع هذه الموضوعات داخل إطارها التاريخى العام وإبراز خلفياتها الثقافية.

وحتى يحقق الأستاذ المترجم هذه النتيجة المرجوة، قام بإعداد أكثر من مائة هامش يتضمن كل منها موضوعاً موجزاً يتناول التعريف بالملوك والأسرات الحاكمة، وأهم المنجزات المرتبطة بهم، بالإضافة إلى توضيح الأسماء والمواقع الحالية للأماكن والمدن التى ورد ذكرها بهذا العمل. خاصة وأن معظمها وردت بأسمائها اليونانية القديمة التى لصقت بها منذ العصر اليونانى/ الرومانى. فضلاً عن الكثير من المعلومات التأريخية والأثرية والتوضيحية الأخرى التى تلقى أضواءً مبهرة ساطعة على المادة العلمية التى وردت بالعمل الأصلى.

وليس هناك أدنى شك فى أن هذا العمل الصعب الذى أضافه الأستاذ المترجم يعتبر إثراءً للعمل الأصلى من جانب، ويجعله فى متناول القارىء العام من جانب آخر، ويحقق الاستفادة المستهدفة لدى كل المتعطشين من شبابنا ومواطنينا فى مصر والعالم العربى للتعرف على جانب هام ومؤثر من عطاءات حضارة مصر القديمة، التى يحلو للكثيرين من العلماء والمؤرخين من مصريين وأجانب أن يسموها أم الحضارات جميعا.

دكتور: أحمد قدرى.

obeikandl.com

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الثانية

ليس سراً نخفيه لأنه أمر شديد الوضوح، فالكتب التى تناولت تاريخ وآثار الحضارة المصرية القديمة والتى كتبها العلماء والمؤرخون الأجانب أكثر بكثير جداً من الكتب التى ألفها فى هذا الموضوع علماء مصريون أو عرب.

ومنذ بداية القرن التاسع عشر وحتى الآن، صدرت عدة آلاف من الكتب والدراسات الموسوعية التى تناولت هذا الموضوع الذى أصبح أثيراً لدى عشرات من العلماء والمؤرخين الانجليز والفرنسيين والامريكيين والألمان والروس والايطاليين والسويسريين وغيرهم من الجنسيات الأوربية الأخرى.. بل وظهرت عناصر علم جديد هو علم الإچيبتولوچى أو علم المصريات الذى أدى إلى إعادة النظر فى تاريخ الحضارة الإنسانية بصفة عامة فى ضوء ما ظهر فى مصر من اكتشافات أثرية وما أجرى على هذه الآثار من دراسات علمية.

ومما لا جدال فيه أن النتائج العلمية التى استخلصت من هذه الدراسات قد وضعت أسس ــ أو قامت بتطوير ــ علوم إنسانية أخرى كعلوم الانثروبولوچى والاثنولوچى والتاريخ الاجتماعى والتاريخ الحضارى والدراسات الثقافية المقارنة. كما أدت أيضاً إلى انقلاب فى المسلمات التاريخية التى كانت مستقرة من قبل على أن الحضارة اليونانية هى البداية الرئيسية للحضارات الإنسانية، وأصبح من المسلم به لدى علماء التاريخ والآثار، أن الحضارة المصرية القديمة هى أم الحضارات.. وفى مصر القديمة بدأ كل شىء.. وتوالى ظهور الأدلة التاريخية

والأثرية على أن المصريين القدماء هم الذين وضعوا أسس الكتابة بالحروف الأبجدية ، وأسس العلوم الطبيعية ، وأسس العمارة والفن والأدب والدين ، وقواعد ومبادىء الأخلاق والسلوك الإنساني والتنظيم الاجتماعي والسياسي والاقتصادى للدولة .. وهم الذين ابتدعوا أيضاً المبادىء والأسس التى قام عليها علم الاستراتيجية وعلم التكتيك وفنون الحرب وتنظيم الجيوش الكبرى ، ووضع خطط المعارك الحربية التى مازالت حتى الآن محل دراسة بأكاديميات الحرب الحديثة فى كثير من دول العالم .

ومنذ سنوات طويلة وأنا أشعر بالأسف الشديد لأن الغالبية العظمى لهذه الآلاف المؤلفة من الكتب والمراجع والدراسات الموسوعية التى تتناول التاريخ المصرى القديم والحضارة المصرية القديمة أصبحت متاحة الآن لمعظم شعوب العالم فى مشارق الأرض ومغاربها لأنها مؤلفة فى الأصل أو مترجمة إلى مختلف لغات العالم الحية مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية والاسبانية والايطالية واليابانية وغيرها من اللغات الأخرى . ويتمثل أسفى هنا بأن هذه الكتب الواسعة الانتشار المطبوعة على أفخر أنواع الورق المصقول وبأعلى مستويات الطباعة وتنسيق الألوان ، ليست متاحة بالقدر الكافى لقراء العربية ــ وخصوصاً المصريين ــ وهم أولى الناس بقراءتها .

ولذلك فقد كنت أحلم بيوم يقوم فيه المترجمون المتخصصون من ذوى الثقافة التاريخية والأثرية وهم كثيرون بترجمة هذه الكتب والمراجع الأجنبية إلى اللغة العربية .. ودعوت إلى ذلك بالحاح فى كل وسائل النشر التى أتيحت لى بقدر الامكان .

وفى أواخر عام ١٩٨٤ كنت قد انتهيت من ترجمة كتاب « المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية ١٥٧٠ق م ــ ١٠٨٧ق م » واعداده للطبع ، وهو رسالة الدكتوراه التى قدمها الدكتور أحمد قدرى للحصول على درجته العلمية من جامعة بودابست . واقترحت عليه أن تقوم مطبعة هيئة الآثار المصرية بإصدار الطبعة العربية لما لها من امكانيات فنية جيدة وقدرتها على اصدار الكتب إلى جانب ما تصدره من المطبوعات والنشرات السياحية والأثرية الأخرى .

وفى ذلك الوقت، كانت هيئة الآثار المصرية تعيش عصرها الذهبى القصير تحت رئاسة الدكتور أحمد قدرى، وكان رحمه الله ذا نفس عفيفة ومشاعر حساسة إلى حد كبير، فخشى أن يقال أنه استغل منصبه وسخر مطبعة الهيئة فى طبع كتابه.. وحاولت جاهداً أن أخفف من وطأة تلك الحساسية المبالغة على أساس أن هيئة الآثار ملزمة ــ طبقاً للخطة التى كان ينتهجها فى ادارتها ــ بنشر الوعى الثقافى التاريخى والأثرى على أوسع نطاق. وأن فى امكان الهيئة أن تصدر المزيد من الكتب الأخرى وتطرحها فى المكتبات ولدى موزعى الكتب لتصل إلى جماهير القراء بسعر منخفض معقول.

واقترحت عليه أن تدعو هيئة الآثار كافة المتخصصين القادرين على الترجمة سواء من الدكاترة والاساتذة العاملين فيها أو من خارجها، إلى التقدم بمترجماتهم أو بمؤلفاتهم لتقوم الهيئة بطبعها ونشرها طبقا لخطة مدروسة تهدف أساساً إلى نشر الثقافة التاريخية والأثرية على أوسع نطاق مستطاع.

ولم تمض سوى أيام قليلة حتى قرر مجلس إدارة هيئة الآثار المصرية البدء فوراً فى طبع ونشر سلسلة من الكتب المتخصصة فى التاريخ المصرى بكل أزمنته وعصوره، والآثار المصرية بكافة أزمنتها وعصورها. وهكذا تبنت الهيئة هذا المشروع العظيم وأسمته «نحو وعى حضار معاصر. سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية. مشروع المائة كتاب» وذلك على أساس خطة عملية تنفذ خلال عشر سنوات.

وكان لى شرف الاشتراك فى هذا المشروع بترجمة كتابين هما: «المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية» من تأليف الدكتور أحمد قدرى ومراجعة الدكتور جمال الدين مختار، و«فن الرسم عند قدماء المصريين» من تأليف وليم هـ. بيك ومراجعة الدكتور أحمد قدرى ويعتبر هذا الكتاب أول مرجع يصدر باللغة العربية فى موضوعه.

واذكر هنا بكل الفخر والاعزاز ان الدكتور أحمد قدرى رحمه الله أخذ يشجعنى بل ويلح على إلحاحاً أن أترجم الكثير من الكتب والمراجع التى تتناول أدب المصريات وتاريخ الحضارة والآثار المصرية، ووعدنى بأنه سيقوم بمراجعتها بنفسه وتقديمها إلى جمهور القراء..

كذلك اذكر بكل الأسف أن هذا المشروع العظيم الذى تبنته هيئة الآثار المصرية قد توقف تماماً بعد فترة رئاسة الدكتور أحمد قدرى للهيئة، ولم يصدر منه سوى أحد عشر كتاباً هى كل ما استطاعت الهيئة تنفيذه بالرغم من المعوقات وأحابيل المعوقين.

وبكل الإيمان بأن الله تعالى يبارك العمل الجيد، فقد قبلت «الدار المصرية اللبنانية» اقتراحى باصدار سلسلة من الكتب والمراجع المؤلفة والمترجمة تتناول تاريخ وحضارة والآثار المصرية فى مختلف العصور الفرعونية والإسلامية. وبدأنا بإصدار كتاب «مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية» [ثلاث طبعات] ثم الكتاب الوثائقى «مراكب خوفو.. حقائق لا أكاذيب» [طبعتان] ثم هذا الكتاب الذى نتشرف بتقديم الطبعة الثانية منه إلى القارىء الكريم «الحضارة المصرية. من عصور ماقبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة».

ولا جدال فى أن اعادة طبع هذه الإصدارات من الكتب المتخصصة تتضمن مؤشراً واضحاً لمدى اقبال القارىء العربى على هذه النوعيات الثقافية ومدى تشوقه إلى قراءة تاريخ الآباء والأجداد القريبين منهم والبعيدين. كما يدل أيضاً على مدى حاجة المكتبة العربية بصفة عامة إلى المزيد والمزيد من كتب التاريخ والآثار. وهذا ما نحاول تحقيقه بعون من الله العلى القدير.

مختار السويفى

كورنيش النيل ــ القاهرة ــ أغسطس ١٩٩١.

مقـــدمة الطبعة الأولى ...

قال صديق لى يشغل منصباً علمياً كبيراً بمركز تسجيل الآثار بالزمالك حين علم بأنى أقوم بترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية :

ــ أنك تحتاج إلى أكثر من صبر أيوب .. فمن المعروف أن سيريل ألدريد مؤلف هذا الكتاب يكتب « البلاغة » الانجليزية بأسلوب صعب بالغ التعقيد شديد التركيز، وهو يكثف معلوماته عن علم المصريات والحضارة المصرية تكثيفاً قد يصعب فهمه على العلماء المتخصصين فى التاريخ المصرى القديم والعلماء المتخصصين فى تاريخ الفنون .. كما أنه يكتب وكأنه يخاطب علماء يعرفون الكثير عن الموضوعات التى يتناولها .. أو كأنه قد أغفل القارىء العام الذى يريد أن يستزيد من المعرفة .

والحقيقة أنى لم أندهش لقول صديقى هذا ، ولكننى أدركت فى تلك اللحظة فعلاً قدر المعاناة والصعوبات الشديدة التى واجهتها اثناء ترجمة هذا الكتاب .. فقد كانت تصادفنى بعض كلمات صعبة تجعلنى اضطر إلى اللجوء إلى عدة قواميس حتى أصل إلى معناها المقصود فى الجملة التى وضعت فيها .. كما كانت تصادفنى كلمات أخرى أكثر صعوبة لا أجد معناها المقصود فى القواميس العادية فاضطر إلى البحث عنها فى القواميس المتخصصة .. وحتى بعد التغلب على صعوبة الكلمات المفردة ، خصوصاً الكلمات والمصطلحات اللاتينية التى يولع المؤلف باستخدامها ، كانت تبقى بعد ذلك صعوبة تركيب الجمل بداخل الفقرة الواحدة ، حيث ينتهج المؤلف بقدرة فائقة منهجاً رفيعاً فى صياغة اسلوبه . وبطبيعة الحال فإن هذه القدرة تعتبر ميزة فى جانبه ولا تعتبر عيباً يحاسب عليه .

ولاشك عندى فى أن قارىء أصل هذا الكتاب فى لغته الانجليزية الأصلية، سيجد متعة رفيعة المستوى فى تتبع المئات من الأفكار والمعلومات والموضوعات الصغيرة المركزة التى تتناول ابداعات الفنانين المصريين الأوائل، سواء فى تلك الفترات الغامضة التى سبقت عصور التاريخ المعروف، أو فى تلك الفترات التى تسيدت فيها الحضارة المصرية فوق قمم الابداع الإنسانى فى جميع أنحاء العالم، وفوق كل الحضارات القديمة التى عاصرت المصريين حين كانوا يعيشون فى ظل نظام الدولة القديمة منذ مايقرب من خمسة آلاف عام.

وقد بذلت كل جهد ممكن فى نقل هذا الإحساس بالمتعة إلى قارىء هذا الكتاب بعد نقله إلى اللغة العربية.

وتتجلى هذه المتعة أوضح ماتكون حين يتناول الكتاب تلك التحليلات الرائعة لفنون المصريين الأوائل فى عصور ماقبل التاريخ، وهى عصور مازالت حتى الآن تثير الكثير من الجدل بين أئمة المؤرخين وعلماء الآثار، ويعتبر البحث فيها من أكثر البحوث صعوبة من الناحية العلمية، حيث تتداخل مبادىء وقواعد عدة علوم فى الموضوع الواحد. ولابد من ابراز الجوانب الجغرافية والچيولوچية والبيئية والأنثروبولوچيةوالإثنولوچيةوالتاريخية والأثرية وكافة الجهود العلمية الأخرى التى قد يقتضيها البحث فى سبيل الوصول إلى نتيجة حاسمة فى بعض الأحيان، وتقريبية فى أحيان كثيرة. كما قد يقتضى الأمر استخدام التحليلات الكيميائية والطيفية والاشعاعية، واستخدام أحدث أجهزة التحليل التى تعتمد على الكربون ١٤ المشع والبوتاسيوم آرجون. وبالإضافة إلى هذا كله فلابد أن يتسلح الباحث فى مثل هذه المجالات بخلفية ثقافية واسعة تشمل المعرفة التامة والمتعمقة بتاريخ حضارات العالم القديم بصفة عامة، وبتاريخ الحضارة المصرية على وجه الخصوص، والإلمام التام بنوعية وطبيعة الحضارات الإنسانية التى سادت فى كافة أنحاء المساحة التى تشغلها مصر منذ أقدم عصور ماقبل التاريخ، سواء فى صحاريها ووديانها وتلالها وجبالها وواحاتها وأحراشها وسواحل بحارها وأراضى دلتاها وضفاف نيلها.

وحتى السنوات الأخيرة من القرن الماضى، وبالتحديد حتى عام ١٨٩٤م، لم تكن المعلومات المعروفة الموثوق بها عن تاريخ مصر القديم، ترجع إلى عصر أقدم

من عصر الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ووالد الملك خوفو صاحب الهرم الأكبر، أو إلى عصر الملك زوسر صاحب الهرم المدرج بسقارة إلى أقصى تقدير.

وبالرغم من وجود بعض القوائم بأسماء الملوك الذين سبقوا الملك سنفرو فى اعتلاء عرش مصر خلال الأسرات الثلاث التى جلس ملوكها على نفس العرش، بما فيهم اسم الملك مينا الذى وحد القطرين وبدأ عصر الأسرات، إلا أن معظم المؤرخين وعلماء الآثار حتى ذلك الوقت، كانوا يظنون أن اسماء هؤلاء الملوك كانت أسماء أسطورية لملوك أسطوريين لم يتركوا آثاراً مادية تدل على وجودهم وجوداً حقيقياً واقعياً. كما نظر هؤلاء العلماء أيضاً إلى دلائل الأحداث التى عرفت عن هؤلاء الملوك باعتبارها شذرات من حكايات ضئيلة القيمة لاتشكل فى مجموعها عناصر البحث التاريخى السليم. وعلى هذا الأساس لم يكن لدينا أية فكرة أو تصور لتلك الحضارة العظيمة الرفيعة المستوى التى قامت فى مصر قبل عصر الأهرام بآلاف السنين.

ولكن هذا الوهم الخاطىء تبدد كله فى السنوات الأخيرة من القرن الماضى نتيجة لتلك الاكتشافات الأثرية الرائعة التى قام بها مجموعة من علماء الآثار المصرية يتصدرهم العالم بترى الذى أجرى بحوثه وحفائره فى منطقة أبيدوس [العرابة المدفونة]. والعالم دى مورجان الذى أجرى بحوثه وحفائره فى منطقة نقادة. والعالم كويبل الذى أجرى بحوثه وحفائره فى منطقة الكاب.. فقد عثر هؤلاء العلماء على آثار وأطلال مجموعة من المعابد والمقابر التى يرجع تاريخها إلى عصور هؤلاء الملوك الأوائل الذين كان يظن أنهم ملوك اسطوريون.

فى عام ١٨٩٤م عثر كويبل فى حفائره التى أجراها فى منطقة الكاب، على رأس الصولجان الخاص بالملك «سِلْك» أو الملك العقرب وهو الإسم الذى اشتهر به، كما عثر على لوح الارdwاز الشهير الخاص بالملك «نعرمر». كما كشف النقاب أيضاً عن آثار أخرى لملكين آخرين من ملوك الأسرة الثانية هما «خع سخم» و«خع سخموى».

وبعد ذلك بنحو عامين أكتشف دى مورجان فى منطقة نقادة آثار مقبرة عظيمة ظن فى البداية أنها مقبرة الملك «حورعحا» من ملوك الأسرة الأولى، ثم أوضحت الأبحاث فيما بعد أنها مقبرة الملكة «نيت حتب» أم الملك «حورعحا».

وفى تلك السنوات أيضاً رزئت البلاد بأحد قراصنة الآثار، وكان إيطالياً إسمه «أميللينو».. جاء إلى مصر بتمويل من بعض كبار هواة جمع التحف والآثار المصرية القديمة. وأجرى حفائره العشوائية فى منطقة «أم الجعاب» القريبة من أبيدوس. وعثر على مجموعة من بقايا وأطلال مقابر ملوك الأسرتين الأولى والثانية، أخذ ينقب فيها بلا دراية ولا حرص، وبطريقة تقرب من التدمير، بل وقام فعلاً بتدمير وتحطيم مجموعة كبيرة من التحف والأوانى الحجرية المتكررة حتى يرفع قيمة وثمن ما يحتفظ به.

وكانت النتيجة المباشرة لهذه الاكتشافات هى تسليط الضوء على مراحل البيانات الأولى لتاريخ مصر القديمة. وهو أمر أدى بدوره إلى تركيز الضوء أيضاً على الآثار البديعة المبهرة التى خلفها المصريون الأوائل الذين عاشوا فى مختلف المناطق المصرية فى عصور ما قبل الأسرات وعصور ما قبل التاريخ.

وخلال النصف الأول من القرن العشرين تواصلت الاكتشافات الأثرية لمخلفات كل هذه العصور ولكن ببطء شديد، وربما يرجع ذلك إلى قلة الاعتمادات المالية التى كانت تمول هذه الكشوف، أو ربما إلى قلة ما عثر عليه من آثار مكتوبة. وحتى بالنسبة لهذه الآثار الأخيرة، فقد كانت الكتابات غامضة إلى حد كبير وأشبه بالطلاسم التى تستعصى على الحل أو الفهم. وبالرغم من ذلك فقد اشترك فى تلك الكشوف وما ترتب عليها من تحليلات ودراسات تاريخية ونظرية مجموعة لا حصر لها من اشهر أساتذة التاريخ وعلماء الآثار من مصريين وأجانب.

أما البحوث والحفائر الأثرية التى أجريت فى النصف الثانى من القرن العشرين، فقد تميزت بالكثرة كما تميزت باستخدام الوسائل والأجهزة الحديثة التى أسفرت عنها النهضة العلمية والتكنولوجية التى حدثت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية.

وقد يكون من الصعب، بل ومن المستحيل، أن نقدم حصراً بإحصاء كل البعثات العلمية التى أوفدتها الجامعات والمعاهد ومتاحف الآثار ومتاحف الفنون الجميلة من كافة أنحاء العالم، والتى استهدفت البحث عن مخلفات وآثار الإنسان المصرى الذى عاش فى عصور ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات. إلا أننا مع ذلك

نشير إلى أن تلك البعثات قد بذلت جهوداً جبارة ، وجابت الفيافى وصحارى مصر الواسعة ، سعياً وراء تلك المعرفة .

ولعل أهم المواقع التى فحصتها تلك البعثات وعثرت فيها على دلائل مادية تنبىء عن وجود وحياة الجماعات الإنسانية الأولى التى عاشت فى المساحة المصرية قبل أن يبزغ للتاريخ فجر، تتمثل فى مواقع وأماكن يبدو أغلبها الآن كصحارى قاحلة تكاد أن تكون خالية من مظاهر الحياة تماماً .. وأشهر هذه المواقع كان فى منطقة السلسلة بالقرب من كوم امبو، وواحة كركر، وجبل القطران قرب بحيرة قارون بالفيوم ، وممر إدفو/ مرسى علم بالصحراء الشرقية ، وتلال ووديان النوبة قبل اختفائها تحت مياه بحيرة السد العالى ، ومنطقة بيرطرفاوى التى تبعد بنحو ٤٠٠ كيلومتر جنوب غرب الواحات الخارجة بالصحراء الغربية .

هذا بالإضافة إلى العديد من الحفائر الأثرية التى أجريت فى فترات متباعدة وعلى مدى طويل بمناطق صحراء العباسية بشمال شرق القاهرة ، وصحراء المعادى وطرة وحلوان بجنوب القاهرة ، وميدوم والجرزة بمحافظة بنى سويف ، والبدارى ودير تاسا بمحافظة أسيوط ، وأبيدوس بمحافظة سوهاج ، والعمرة ونقادة والجبلين بمحافظة قنا ، ومرمدة بنى سلامة بجنوبى الدلتا .. وغير ذلك من الأماكن والمواقع الأخرى التى مازالت تسفر بين حين وآخر عن مفاجآت أثرية تثرى معارفنا عن الحضارة المصرية فى تلك العصور السحيقة فى القدم .

وقد نشطت هذه البعثات العلمية والكشفية خلال عقدى الستينات والسبعينات . وقد بلغ الجانب النظرى من هذا النشاط أوجه فى سنة ١٩٧٤ بانعقاد ندوة علمية تحت إشراف منظمة اليونسكو التابعة لهيئة الأمم المتحدة ، قدمت فيها الكثير من البحوث العلمية التى يدور موضوعها الأساسى عن «سكان مصر القديمة» . ومن أهم النتائج التى أسفرت عنها تلك الندوة أن فترة ماقبل التاريخ فى مصر، أخذت تحظى باهتمام الكثير من علماء الانثروبولوچى والمؤرخين وعلماء الآثار.. ولذلك فمن المتوقع ظهور المزيد من الكتب والأبحاث الجديدة التى تتناول دراسة مراحل البدايات الأولى لتلك الحضارة العريقة التى سادت فى

وادى النيل الأدنى، وتسيدت على حضارات العالم القديم التى عاصرتها، بذلك الرسوخ والطابع الذاتى الذى يميزها، وذلك الرقى والمستوى الرفيع الذى بلغته فى كافة انشطة الجماعات الإنسانية الأولى فى مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد والفن والعمارة والفكر والعقيدة.

وسوف يلاحظ القارىء أن مؤلف هذا الكتاب لم يغفل ذكر بعض آراء للعلماء من أنصار حضارات ميزوبوتاميا [بلاد بين النهرين] وإيران وسوريا وفلسطين. حيث رأى بعضهم أن الزراعة قد نشأت فى تلك الحضارات أولاً ثم انتقلت منها إلى مصر. وهذه المسألة تعتبر من الناحية العلمية مسألة خلافية مازالت تثير جدلاً بين العلماء لم يقطع فيه برأى حاسم.

ومع ذلك فإن علماء كثيرين ممن تدارسوا عملياً مختلف البيئات المصرية لتتبع خطوات الإنسان المصرى فى العصرين الحجريين القديم والحديث، قدموا عدداً من الأدلة والشواهد المادية على معرفة المصريين الأوائل بسبل الزراعة وإنبات الحبوب. وأن هؤلاء الأوائل قد سبقوا الكثيرين من أصحاب الحضارات المعاصرة لهم فى الانتقال من مرحلة جمع الطعام إلى مرحلة انتاج الطعام.

هذا بالإضافة إلى أن علماء كثيرين آخرين يرون أن معرفة الإنسان للزراعة، كانت فى الأصل معرفة فطرية لم تكن تتطلب سوى ملاحظة ظواهر الإنبات الطبيعية، حيث كان النبات يخرج من بطن الأرض تلقائيا فى أعقاب سقوط البذور والحبوب البرية بفعل الرياح أو بطريق المصادفة على الأرض الرخوة أو المبتلة. وهذه المعرفة الفطرية قد تحدث عملاً أمام الجماعات الإنسانية التى كانت تعيش فى بيئات تتوافر فيها الظروف الملائمة لهذا الانبات الطبيعى.

ويرى أغلب الباحثين من علماء الإكولوچى [البيئة] أن ضفاف النيل فى أرض مصر، كانت البيئة المناسبة لمعرفة الزراعة لأول مرة. وذلك تأسيساً على مناسبة الظروف المناخية التى كانت سائدة بمصر، بالإضافة إلى الدور الذى أداه تعاقب الفيضان السنوى المنتظم لنهر النيل وماينتج عنه عادة من تخصيب التربة تخصيباً يجعلها صالحة لانبات البذور بأقل قدر من المجهود. كما يرى هؤلاء الباحثون أيضاً أن الأدوات التى استعملها المصريون الأوائل فى مباشرة العمليات

الزراعية تعتبر أنضج من ناحية الصناعة من تلك الأدوات التى صنعتها الجماعات الإنسانية الأخرى فى حضارات وديان الأنهار الكبرى التى كانت تعاصر الحضارة المصرية القديمة من الناحية الزمنية.

كذلك فسوف يلاحظ القارىء أن المؤلف ذكر آراء بعض العلماء الذين تشيعوا إلى فكرة انتقال بعض النماذج الفنية من بلاد ما بين النهرين إلى مصر، سواء فى عصر ماقبل الأسرات، أو فى العصر العتيق الذى شغلته الأسرتان الأولى والثانية. وأشار المؤلف إلى نفس النماذج الفنية التى أشار إليها العلماء من أنصار حضارة ميزوبوتاميا [بين النهرين] وهى على وجه التحديد:

(أ) ـــ النموذج الخاص بتصوير البطل الاسطورى الذى يقوم باخضاع أسدين، أو يقوم بالتفريق بين أسدين. وهو نموذج كان شائعاً فى الأعمال الفنية فى بلاد ما بين النهرين.

(ب) ـــ النموذج الخاص بطراز المراكب ذات المقدمة والمؤخرة المرتفعة ارتفاعاً كبيراً. وهو يماثل طراز المراكب المعروفة باسم «البَلَمْ» الذى كان شائعاً فى بلاد ما بين النهرين. وقد استند بعض العلماء من أنصار حضارة ميزوبوتاميا إلى أن ظهور هذا النموذج منقوشاً فى عمل فنى ذى طابع مصرى، يدل على أن مصر قد تعرضت قبيل عصر الأسرات مباشرة إلى غزو جاءها من بلاد ما بين النهرين. بل وتحمس بعض هؤلاء العلماء حماساً على غير أساس، وادعوا أن الطفرة الفجائية التى طفرتها الحضارة المصرية قبيل عصر ماقبل الأسرات ترجع بصفة رئيسية إلى هذا الغزو وماصحبته من حضارة ناضجة وافدة! . وهو ادعاء غريب يدحضه ماأثبتته الشواهد الأثرية من أن المصريين الأوائل قد ابتكروا العديد من طرز المراكب والسفن النيلية والبحرية. وأن هذا الطراز بالذات يشبه إلى حدما [خصوصاً من ناحية شكل المنشآت العلوية] بعض المراكب النيلية التى صنعها مصريو الوجه القبلى، الذين تراجعوا عن هذا الطراز وتحولوا إلى طرز أخرى أكثر ملاءمة وأفضل تشغيلاً وابحاراً سواء فى الملاحة النيلية أو فى الملاحة الساحلية بالبحرين الأحمر والمتوسط.

(جـ) ــ النموذج الخاص بتصوير بعض الحيوانات الخرافية التي لا وجود لها فى الطبيعة، حيث ذكر العلماء المتشيعون لحضارة ما بين النهرين أن صور مثل هذه الحيوانات الخرافية كانت شائعة فى تلك الحضارة، ولم تظهر فى أعمال الفنانين المصريين حتى وفدت إليهم من بلاد ما بين النهرين. وربما فات على هؤلاء العلماء أن مثل هذه الحيوانات الخرافية الشبيهة بالحيوانات التي ظهرت فى بعض الأعمال الفنية فى حضارة ما بين النهرين قد ظهرت فى أعمال فنية مصرية الطابع كوحدات زخرفية أملتها طبيعة المساحة المتاحة لها كعنصر فنى ضمن عناصر فنية متكاملة. وأشهر نموذج لهذا التكوين الفنى المصرى الطابع هو صورة الحيوانين الخرافيين اللذين يظهران فى لوح الإردواز التذكارى للملك نعرمر [أول ملوك الأسرة الأولى فى رأى كثير من المؤرخين]. حيث يظهر كل حيوان من هذين الحيوانين الخرافيين بجسم أسد ورقبة طويلة ثعبانية ورأس فهد.

والملاحظ هنا أن عبقرية الفنانين المصريين الأوائل تجلت فى تصوير هذه الحيوانات الخرافية كتعبير من تعبيرات الخيال التي قد تخطر فى ذهن وأفكار أى فنان يعيش فى بيئة مماثلة، حيث فى الإمكان أن يتوهم وجود مثل هذه الحيوانات الخيالية التي لا يوجد لها مثيل فى حيوانات البيئة، ولكنه يتوهم أو يتخيل وجودها بتلك الصورة ليتمكن من التعبير عن الكائنات والوحوش الضارية التي كانت تخيف وتروع الإنسان والحيوانات الأخرى. ولذلك فقد سجل الفنانون المصريون الأوائل صوراً لمثل هذه الوحوش الخيالية باجسامها القوية ورقابها الغريبة التي تشبه رقاب الزراف أو تشبه الثعابين والحيات، بل وجعلوا لبعض منها أجنحة قوية هائلة تشبه أجنحة النسور والعقبان.

هذا بالإضافة إلى ولع الفنانين المصريين الأوائل بالتعبير الرمزى الذى قد يؤدى إلى الغموض أو صعوبة فهم الموضوع الحقيقى الواقعى الذى عبر عنه الفنان بتكوين فنى يلعب فيه الرمز الدور الأول. وقد فطن بعض العلماء المنصفين ومؤرخى الفنون إلى دلالة ذلك التكوين الزخرفى الذى أبدعه الفنان المصرى باقتدار وتمكن، واستخدم فيه الحيوانين الخرافيين، فقد أظهرهما بجسمين قويين ويرفع كل منهما ذيله للتعبير عن الغضب والهياج، كما جعل رقبتيهما تلتفان حول بعضهما فى تكوين دائرى كامل الاستدارة، أعطى لوجه لوح الإردواز التذكارى قدراً كبيراً من التوازن والجمال الفنى.

كذلك نلاحظ أن الفنان المصرى أضاف إلى هذا التكوين منظراً لرجلين يقوم كل منهما بجذب عنق كل حيوان بحبل قوى من حبال الصيد، كما لو كانا يريدان السيطرة على الحيوانين ومنعهما عن العراك أو التقاتل فيما بينهما. ومن المحتمل أن الرمز المقصود من هذا التكوين الفنى الزخرفى هو التعبير عن أن عهداً جديداً قد بدأ، وأن رجال هذا العهد الجديد سيطروا على جماعتين قويتين، ومنعوهما من التصادم والعراك والاقتتال. وهذا التحليل يقترب كثيراً من التعبير عن الموضوع أو الموضوعات المتكاملة التى عبر عنها لوح الإردواز التذكارى الخاص بالملك نعرمر الذى قام بتوحيد القطرين أو الأرضين وسيطر عليهما معاً وأنهى بذلك عهود الصراع والاقتتال التى سادت بينهما فى الماضى.

(د) ــ النموذج الخاص بصناعة واستخدام الأختام الأسطوانية لختم سدادات الأوانى أو ربما لختم الوثائق. ففى عصر الأسرتين الأولى والثانية، كثر استخدام هذه الأختام لختم السدادات التى كانت تغلق بها الأوانى والجرار التى حفظت بها أنواع من الأطعمة أو الشراب. وكانت هذه السدادات تصنع عادة من الطين، ثم تختم بتمرير هذه الأختام الاسطوانية على الطين الطرى وتترك لتجف. وقد قيل أن استخدام هذه الأختام كان من الأمور الشائعة فى حضارة ما بين النهرين، ثم انتقلت منها إلى الحضارة المصرية.

وقد لا يكون هناك مانع من قبول القول بهذا الاحتمال. ولكن الملاحظ اختلاف شكل الأختام المصرية كلية عن شكل أختام ما بين النهرين، فقد كانت هذه الأخيرة تتكون من خطوط أو أشكال هندسية زخرفية، أما الأختام المصرية فقد كانت تتضمن عادة «كتابة» هى فى الغالب اسماء الملوك أو الأفراد أصحاب المقابر التى وجدت فيها هذه الأوانى والجرار المختومة، أو وجدت بها الأختام الاسطوانية التى استخدمت.

ومجمل القول فى كل ذلك أن جميع مثل هذه النماذج والرؤى الفنية يمكن أن تنشأ وتتطور فى أحضان أية حضارة محلية من حضارات العالم القديم مهما تباعدت المسافات بين تلك الحضارات، وأن كل حضارة تتناول تلك الرؤى الفنية طبقا لطريقتها الخاصة ولتقاليدها فى التعبير الفنى ومستواها فى الصناعة. وعلى هذا

فيمكن القول بأنه لاضرورة للظن بأن هناك تأثيراً لازماً لحضارة بلاد ما بين النهرين على الحضارة المصرية فى عصر ما قبل الأسرات أو فى عصر الأسرات المبكرة.

ويرى الكثير من العلماء والمؤرخين أن ثمة علاقات قد حدثت بين الحضارة المصرية وحضارة بلاد ما بين النهرين فى عصور ما قبل التاريخ. ويرى بعضهم أن هذه العلاقات قد قامت مباشرة بين الحضارتين، بينما يرى آخرون أنها قد حدثت بطريق غير مباشر حيث كانت الحضارتان تلتقيان فى المناطق التى سادت فيها حضارات وسيطة فى سوريا وفلسطين، وهى المناطق التى تفصل أو تصل بين مصر والعراق. وقد أدت هذه المناطق دوراً تاريخياً هائلاً فى عمليات الهجرة والانتقال والمبادلات التجارية التى لم ينقطع جريانها بين شعوب غرب آسيا وشرق البحر المتوسط ومصر. وبناء على ذلك فلم يكن من المستبعد أن يتم انتقال بعض الرموز أو العناصر الفنية بين تلك الحضارات وبعضها البعض. وفى نفس الوقت، كانت تلك العناصر تمتزج بالطريقة أو الأسلوب الفنى السائد فى كل حضارة على حدة. وتدل جميع الشواهد الأثرية لمخلفات الأعمال الفنية التى عثر عليها أو اكتشفت فى مصر والتى يرجع تاريخها إلى عصر ما قبل الأسرات على مدى تمكن الفنانين المصريين الأوائل وقدراتهم الفائقة فى طبع كل العناصر الفنية بروح مصرية خالصة.

وأخير فإنى أتقدم بوافر الشكر للصديق الأستاذ الدكتور أحمد قدرى لتشجيعه لى على انجاز ترجمة هذا الكتب القيم، ولتفضله بمراجعة الترجمة العربية على الأصل الانجليزى وتقديمها للقارىء، ولاقتراحاته الصعبة المفيدة التى قمت بتنفيذها عشماً فى أن تزيد هذا الكتاب ثراءً وابتغاء مرضاة القارىء العربى المتطلع إلى المزيد من العلم والمعرفة، عن تلك الحضارة العالية التى صنعها أجداد الأجداد، ليتوجوا بها حضارات العالم التى عاصرتها أو سبقتها أو لحقت بها.

ولله وحده كل الفضل ومنه الهداية إلى سواء السبيل.

مختار السويفى

كورنيش النيل القاهرة - مايو ١٩٨٩.

مقدمــة المؤلف

هذا الكتاب عبارة عن توسع واستفاضة فى موضوع فصل كنت قد كتبته ضمن كتاب «فجر الحضارة» The dawn of civilization الذى صدر تحت اشراف البروفيسور ستوارت بيجوت، والذى تضمن عدة بحوث مختصرة ومركزة عن الخطوات والسبل التى سارت فيها الجماعات الإنسانية فى العصور القديمة أثناء تحوّلها من مراحل الحياة البدائية والوحشية إلى مراحل الرقى والحضارة.

وقد اعتمدت هذه البحوث بصفة أساسية على دراسة وتحليل الآثار المادية التى تخلفت عن هذه الحضارات الإنسانية القديمة التى اكتشفها الأثريون، سواء أكانت تلك الآثار فى حالة سليمة أم عثر عليها مهشمة وأعيد تركيبها بعد ترميمها وتصور الحالة التى كانت عليها.

وقد قمت بمعالجة الموضوعات التى تضمنها هذا الفصل والتوسع فيها، محاولاً بقدر الإمكان إبراز تفاصيل تلك الحضارة المتميزة التى أبدعها المصريون الأوائل وطوّروها، منذ عصور ماقبل التاريخ وحتى عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد. وقد بلغت تلك الحضارة قمة ازدهارها فى عصر الدولة القديمة التى بدأت بحكم الأسـرة الثالثة وانتهت بنهاية حكم الأسـرة السادسة.

وهذه القمة الحضارية التى وصلت إليها مصر فى عصر الدولة القديمة أصبحت النموذج والمثل الأعلى الذى تحتذيه مصر فى العصور اللاحقة فى تاريخها القديم الطويل، وكلما عصفت فترات الفوضى بنظام الحكم فيها، اثناء عصور الاضمحلال التى كانت تفصل بين الدولة القديمة والدولة الوسطى، وبين هذه الأخيرة والدولة الحديثة، ثم بين الدولة الحديثة والعصر المتأخر.

وبالرغم من أن القمم الحضارية التى وصلت إليها مواهب المصريين القدماء فى كل من عصور الدولة الوسطى والدولة الحديثة والعصر المتأخر، والتى تأثرت فى أغلبها بتيارات أجنبية وافدة بحيث أصبح لكل حضارة منها طابع خاص تتميز به، إلا أن المصريين خلال إبداعاتهم الحضارية تلك، ظلوا يتطلعون دائماً إلى اعادة ماضيهم التليد ومثلهم الأعلى المتمثل فى النموذج الحضارى الذى وصلت إليه بلادهم فى عصر الدولة القديمة، حين كانت بلادهم موحدة ذات نظام مركزى مستقر، تحت حكم ملك واحد له صفات الإلوهية والتقديس.

وتعتمد دراساتنا للحضارة المصرية فى عصور ماقبل التاريخ وحتى نهاية عصر الدولة القديمة، وهى العصور التى تناولناها فى هذا الكتاب، على الآثار المادية التى تبقت لدينا من مخلفات تلك العصور، خصوصاً مايتعلق منها بفن العمارة وفن النحت. ذلك لأن المعلومات المسجلة كتابة عن تلك الحضارة تعتبر قليلة ونادرة، خصوصاً بالنسبة للمعلومات المكتوبة التى تتناول عصر الأسرتين الأولى والثانية، فهى تتصف إلى جانب ندرتها بالايجاز الشديد وبقدر كبير من الإبهام والغموض.

وحتى بالنسبة للمعلومات المكتوبة عن عصرى الأسرتين الخامسة والسادسة، حين أصبحت الكتابة على جدران المعابد والمقابر أمراً شائعاً، فقد كان أغلب تلك الكتابات تتناول تسجيل قصة الحياة الشخصية لصاحب المقبرة أكثر مما تسجل المعلومات التى تتناول الجانب التاريخى أو السياسى للفترة أو العصر الذى عاش فيه صاحب المقبرة، فيما عدا بعض الاشارات القليلة النادرة التى نستطيع أن نستشف منها الإشارة إلى مثل تلك الأمور.

وعلى سبيل المثال فهناك تسجيل كتابى مفصل وشامل محفور على جدران مقبرة «وينى» الذى عاش فى عصر الأسرة السادسة، يتناول أحداث ووقائع حياته وألقابه ومركزه الاجتماعى والأعمال التى قام بها أثناء حياته خدمة للملك ونظام الدولة، كما أن هناك مجرد إشارات عابرة عن بعض الوقائع والأحداث ذات الدلالة السياسية التى وقعت فى داخل البلاد أو فى خارجها، نستطيع أن نستشف منها الكثير من المعلومات عن طريق الحدس والتخمين أكثر مما نعرفه منها بالطريق المباشر.

أما إذا اعتمدنا فقط على المدونات المكتوبة عن تاريخ الدولة القديمة فى مصر، فسوف نجد أنفسنا مقيدين بما ورد فى الكتابات القليلة النادرة التى دوّنت فى بعض قوائم اسماء الملوك التى وجدت منقوشة على أحجار مهشمة أو غير كاملة، وعلى بعض الصلوات الجنائزية والأدعية الدينية، وبعض بقايا صفحات من كتب الحكمة والتعاليم الأخلاقية التى تنسب إلى حكماء عاشوا فى عصر الدولة القديمة ولكن أقوالهم وتعاليمهم سجلت كتابة فى عصور لاحقة.

وتعتبر نصوص أو متون الأهرام، أهم ميراث مكتوب يعود تاريخه إلى عصر الدولة القديمة. وهى عبارة عن خلاصة وافية لطقوس وصلوات جنائزية وكتابات دينية وعقائدية كتبت باللغة القديمة للتعبير عن بعض المعتقدات الدينية التى يرجع تاريخ بعضها إلى عصور ما قبل التاريخ، بالإضافة إلى المعتقدات الدينية الأكثر تقدماً التى كانت سائدة فى عصر الأسرتين الخامسة والسادسة. وكان الهدف الأساسى من كتابات متون الأهرام، هو تعريف الآلهة وخصوصاً إله الشمس رع بالملك المتوفى.

وربما كان من العسير على الإنسان المعاصر ــ حتى ولو قدمنا إليه ترجمة أمينة لتلك النصوص أو المتون الغامضة ــ أن يدرك أو يتفهم الإطار العقلى أو الطابع العقائدى للمعانى والأفكار التى تتضمنها هذه النصوص الدينية، خصوصاً ونحن لم ندرك بعد طبيعة وخصائص الصياغة الشعرية التى صيغت بها تلك النصوص، أو نعرف الشىء الكثير عن جوهر وخفايا أسلوبها فى التعبير عن مضامينها الروحية أو العاطفية.

وعلى العكس من ذلك، فقد يكون من السهل أن نحس بمثل هذه المضامين استلهاماً من التعبير الفنى لقدماء المصريين فيما خلفوه لنا من أعمال النحت والمنشآت المعمارية، ذلك لأن دراسة هذه الآثار تساعدنا كثيراً فى الوصول إلى معرفة تكاد أن تكون يقينية بطبيعة الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية فى مصر القديمة.

وهناك ثروة طائلة من الكنوز الأثرية التى يعود تاريخها إلى عصر الدولة القديمة، كما أن هذه الكنوز تزداد باستمرار بما تسفر عنه الكشوف الأثرية التى تجرى كل عام.

وكان المحتم أن يتم الاختيار للصور الفوتوجرافية لهذه الآثار التى أوردناها فى هذا الكتاب. وبطبيعة الحال فقد كان اختياراً وانتقاءً صعباً، حين دعت الضرورة إلى استبعاد صور بعض الآثار والقطع الفنية المميزة الرائعة التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر.

وعلى أية حال فقد أثبتنا قائمة بالمراجع الممتازة التى تتناول ما تحدثنا عنه فى هذا الكتاب بكثير من التفصيل حتى يلجأ إليها من يرغب فى الاستزادة.

وختاماً، أقدّم وافر الشكر للمستر والتر نيوراث لتشجيعى فى اخراج هذا الكتاب فى شكله الجديد، كما أقدم شكرى أيضاً للمستر بيتر كلايتون لمساعداته واقتراحاته المفيدة. وللقارىء الحكم النهائى فى تقدير ما بذلته من مجهود.

سيريل ألدريد

obeikandi.com

التسلسل الزمنى لعصور ما قبل التاريخ
حتى نهاية عصر الدولة القديمة

حوالى عام ٢٨٠ ق.م، قام الكاهن المصرى «مانيتون» بتصنيف مجموعة من المدونات والتسجيلات التى كتبت فى العصور السابقة، ورتب فيها أسماء الملوك الذين حكموا مصر وفترات حكمهم، وقسمهم إلى (٣١) أسرة ملكية. وما زال هذا التقسيم الذى وضعه «مانيتون» معتمداً عليه حتى الآن، لدرجة أن علماء المصريات والتاريخ المصرى القديم لم يُدخلوا عليه تعديلاً سوى قيامهم بتقسيم فترات حكم هذه الاسرات الملكية إلى عصور مستقلة كعصر الدولة القديمة وعصر الدولة الوسطى وعصر الدولة الحديثة. واعتبروا الفترات الفاصلة بين هذه العصور فترات اضمحلال واضطرابات سياسية.

كذلك فقد قام المؤرخون وعلماء المصريات بتقسيم فترات ما قبل التاريخ إلى عصور مستقلة اطلقوا عليها أسماء الأماكن والمواقع المصرية التى عثر فيها على تلك الآثار التى تميز بها كل عصر من هذه العصور. وتُجْرَى الآن مزيد من البحوث العملية لتحديد تاريخ وأعمار تلك الآثار بالكربون ـــ ١٤ المشع.

ونبين فيما يلى التسلسل الزمنى لعصور ما قبل التاريخ والعصر العتيق الذى يتضمن الأسرتين الأولى والثانية، وعصر الدولة القديمة الذى يبدأ ببداية الأسرة الثالثة وينتهى بسقوط هذه الدولة.

obeikandi.com

• عصور ما قبل التاريخ :

السنة ق.م	العصر	الحضارة: الوجه البحرى	الحضارة: الوجه القبلى	المواقع الرئيسية
٥٠٠٠	الحجرى الحديث	الفيوم	— تاسا	منخفض الفيوم دير تاسا مستجدة
٤٠٠٠	عصر النحاس ما قبل الأسرات القديم	— مرمدة	البدارى — العمرة	البدارى مرمدة بنى سلامة العمرة البلاص حو أبيدوس المحاسنة
٣٦٠٠	ما قبل الأسرات الأوسط	— المعادى	جرزة الأولى —	نقادة المعادى
٣٤٠٠	ما قبل الأسرات الحديث		جرزة الثانية	الجرزة حراجه
٣٢٠٠	فى هذه الفترة تم توحيد الوجهين البحرى والقبلى فى دولة واحدة وتحت حكم ملك واحد. وتعتبر هذه الفترة بداية العصر التاريخى وأهم مواقع الاكتشافات الأثرية فى: هيراكونبوليس، منف، سقارة، الجيزة، أبيدوس.			

obeikandl.com

• العصر العتيق:

* الأسرة الأولى: ٣٢٠٠ ــ ٢٩٠٠ ق م

اسم الملك	عدد سنوات حكمه
ــ نَعَرْمَرْ [مينا]	
ــ حُوْر عاَحَا	
ــ دجِزْ	٤٠ +
ــ دچِتْ	٣٠ +
ــ عِنيدْچيبْ	
ــ سمر ـ خت	٩
ــ كَا ـ عَا	٣٣ «؟»

* الأسرة الثانية: ٢٩٠٠ ــ ٢٧٠٠ ق م

ــ حِتِبْ سِخِمْوِى	
ــ رَعْ نِبْ	
ــ نِى نِتِرْ	٣٨
ــ بِرْ إيبْ سِــنْ	
ــ خَعْ سِخِمْ	
ــ خَعْ سِخِمْوِى	١٧

• الدولة القديمة:

* الأسرة الثالثة: ٢٧٠٠ ــ ٢٦١٥ ق م

ــ سانَخْت	
ــ زوسر	١٩
ــ سِخِمْ خِتْ	٦
ــ خاَبَا	
ــ حُونِى	٢٤

obeikandi.com

* الأسرة الرابعة: ٢٦١٥ ـ ٢٥٠٠ ق م

ـ سِنِفْرُو ٢٤
ـ خُوفُو ٢٣
ـ چِدِفْ رَعْ ٨
ـ خَفْرَعْ ٢٥ ـ ٣٠
ـ مِنْكَاوْرَعْ ٢١ ـ ٢٨
ـ شِبْسِسْ كافْ ٥

* الأسرة الخامسة: ٢٥٠٠ ـ ٢٣٥٠ ق م

ـ وِسِرْ كَاف ٧
ـ سَاحُورَعْ ١٤
ـ نِفِرْإِرْكَارَعْ [كاكاى] ٧
ـ شِبْسِسْ كَارَعْ [إِيسِى]٧
ـ نِفِرْ إِفْ رَعْ ٤ «؟»
ـ نِى وسِرْرَعْ ٣١
ـ مِنْكَاوْ حُورْ [أَكَاوْحُورْ]٨
ـ چِدْ كَارَعْ [إِيسِيسِى] ٣٩ «؟»
ـ أُونَاسْ [وِنِيسْ] ٣٠

* الأسرة السادسة: ٢٣٥٠ ـ ٢١٨٠ ق م

ـ تِيتِي ١٢
ـ مِرِى رَعْ [بيبِى الأول]٤٩
ـ مِرِى إِنْ رَعْ [أَنْتِى إِمْ سَافْ] ١٤
ـ نِفِرْ كَارَعْ [بِيبِى الثانى]٩٤ «؟»

* الأسرتان السابعة والثامنة: ٢١٨٠ ـ ٢١٦٠ ق م

ـ عدة ملوك كانوا يحكمون لفترات قصيرة جداً.

* نهاية وسقوط الدولة القديمة ٢١٦٠ ق م